أقـــلام معاصـــرة بحبـــر أصيـــل

ذكى نجيب فى الفكر العربى المعاصر

بوسباعى بشـــرى[1]

مقدمـــة:

إنه كلما خلد إنسان إلى نفسه متأملاً إلاّ وحدث فى ذلك نشاط عقلى على صعيد فكره، فهو بهذا يجد علاقة فهم ووعى يدرك الإنسان أنّ للفكر ميزة التقويم، والتقويم هو فى حد ذاته تقديـر شامـل للأفكار سـواء كانت هـذه الأفكار نظريـة أو عملية معاً وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقيس هذا الكلام على معادلة الفكر العربى الذى كان مرسى بحث من المفكرين العرب، كما حضى باهتمام كبير لتورق صفحاته فكان مضمون هذه الصفحات يتناول العديد من المفكرين والفلاسفة الذين كانت لكل واحد منهم بصمته الخاصة فى طريقة تفكيره، ولهذا اختلفت مشاربهم الفكرية والإيديولوجية بحيث قدّموا مشاريع نظرية تتسم بخاصيتى الشمولية والإبداع، أما الصفحة التى استوقفنا عندها هى تلك الخاصة بالمفكر المصرى الكبير «زكى نجيب محمود» ليس إجحافاً منا فى حق المفكرين الباقين ولكن ركزنا وأوغلنا اهتمامنا على زكى نجيب محمود، فبحكم إطّلاعنا على دراسات عديدة تناولت أراء المفكرين والدارسين العرب ولاسيما تلك التى تطرقت بالتمحيص والتدقيق لواقع الفكر العربى الراهن، أمثال محمد عابد الجابرى ،حسن حنفى وحسين مروى، طه عبد الرحمان، محمد أركون، ومالك بن نبى، وغيرهم

---

١) السنة الرابعة دكتوراه (ل م د)، قسم الفلسفة، تخصص فلسفة عربية معاصرة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

الذين حاولوا تبسيط وإيصال ما أبدعوه فى المجال الفكرى فى العالم العربى، بحيث حاولنا من خلال هذه النظرة التركيز على فكر زكى نجيب محمود فكانت طريقة عرضنا له تتمثل فى إبراز واكتشاف الإشكالية النّاظمة لفكره مع تحديد موقفه ومنزلته فى خارطة الفكر العربى الراهنة وتلخيص جزء من مشروعه الفكرى بلغة مبسطة، وعلى هذا الأساس يحتل زكى نجيب محمود فى تاريخنا الفكرى المعاصر مكانة كبيرة بحيث «بوسباعى بشرى» شقّ طريقه وخاض العديد من المعارك الفكرية الهامة التى تشكل البنية الرئيسية فى الفكرالعربى المعاصر، لذا نجده اهتم أولاً بمشكلة التراث متجاوزاً الأسباب الثانوية وغير مباشرة وواضعا بذلك اليد على الأسباب الحقيقية والمباشرة إلى أنّ الحل يكمن عند الذات لا عند الأخر من خلال تحول الفكر العربى من التخلف والعجز إلى القدرة والفاعلية وصنع الحضارة وسار بمقتضى هذه الأفكار حتى يشق منبع العقول بنور التفكير محاولا فى هذا القضاء على ما هو لا عقلى ولا علمى فى مجتمعاتنا حاملا لواء الفلسفة الوضعية المنطقية فى التفكير مستقدما منبر التوجيه والتغيير، مستندا فى هذا إلى إيمانه الكامل بأن الفلسفة الوضعية هى التى تقود إلى تنوير العقول. من هذا التمهيد يمكن تحديد إشكالية البحث فى ما يلى:

- **هل يمكن حصر فكر زكى نجيب محمود فى جانب الوضعى المنطقى أم أن هناك جوانب أخرى يجب تسليط الضوء عليها؟**

لقد سعى هذا الأخير جاهدا إلى تطبيق المنطق العلمى فى التفكير وتجسيد هذا الأخير فى مجتمعنا العربى، وفى هذا السياق حاول زكى نجيب محمود من خلال إنتاجه الفكرى استعمال الوضعية المنطقية فى قراءاته ودراساته التى بنى بها سرحاً جديداً يرسم الوجه الجديد لكل عمل عقلى أو نظرى من أجل إثراء المدارس الفكرية العربية،من خلال إرساء معالم حضارية جديدة معصرنة وعدم الانغماس بذواتنا فى الماضى كى نتعامل مع واقعنا وتراثنا؛ لنتمكن من نقل المجتمع نقلة نوعية تحقق له الصحو ومواكبة روح العصر والعصرنة.

ولكن البيئة الثقافية العربية التى عاش فيها زكى نجيب محمود تختلف من حيث الواقع والتطلعات عن البيئة الأوروبية، وذلك أن الفرق يتمثل فى ضعف التمكن الحضارى فى الواقع العربى وإهمال أمهات القضايا مما جعل مفكرنا يبنى سرحاً جديداً ويحدث اختراق فى واقعه من خلال النسيج الفكرى المحبوك الذى أبدع فيه الدراسة للواقع العربى.

- **رحلة اكتشاف «زكى نجيب محمود» للتراث:**

قبل أن نبين رحلة اكتشاف «زكى نجيب محمود» للتراث، يجدر بنا أولاً أن نوضح مفهومه له، فقد اختلفت الرؤى حول مفهوم التراث قد يكون عبارة عن حياة ماضية لمجتمع بما تحتويه هذه الحياة من عناصر ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية ويعرف أيضاً (التراث) بأنه عبارة عن مجموعة من العناصر الثقافية والفكرية فقط، وقد ينظر إليه بوصفه عقيدة لا غير[١]، كما يرى «زكى نجيب محمود» أنّ التراث بوصفه مرّة فكرة وثقافة و مرّة بوصفه عقيدة فقط، وهو فى هذا يراه قائما على أساس النظرة الثنائية للوجود حيث يقول فى كتابه ثقافتنا فى مواجهة العصر: «ونعود إلى الهيكل الصورى الذى أشرنا إليه فى أول هذا المقال زاعمين أنه بين قوائم الثقافة العربية الأصلية فقد كان أهم ما ذكرته عندئذ مقابلة بين «مطلق» وعالم «الحوادث » وما لم تكن وقفة المثقف العربى - مهما يكن ميدانه — وقفة تجمع بين هذين الطرفين لا من حيث يكون«المطلق» استخلاصا فى عالم الحوادث الجزئية بل من حيث هو موجود واجب الوجود يفرض نفسه على مجرى الأحداث فمثل ذلك المثقف لا يثير الصلة بينه وبين «الأصالة» بالمعنى الذى يرد الأصالة إلى الأصول الأولى » ومن خلال هذا يتبين أن زكى نجيب محمود اعتبر أن العقيدة من أهم دعائم الثقافة العربية أو التراث العربى من منظور أنها ترتكز على مفهوم المطلق الواجب

١- أسامة على حسن الموسى، المفارقات المنهجية فى فكر زكى نجيب محمود، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت، ط١، ١٩٩٧، ص ١٥٥.

الوجود المفروض إيمانا بوجود عالم غيب وراء عالم الشهادة على حد تعبير زكى نجيب محمود وعلى هذا الأساس فالعقيدة تعتبر صلب تراثنا الإسلامى كما يرى أيضا أن منهج التفكير المنطقى و العلمى جزءا من التراث الإسلامى [١].

لقد انصرف زكى نجيب محمود إلى القول بأن ما يميز تراثنا هو مجموعة القيم القادرة على حياة مثلى، يكون فيها العمل والأمل، وهى منظومة من القيم لم تعرف بها أمة كما عرفنا ومن ثمة فهى التى يمكن أن تمدنا بالطابع الفريد الذى يحقق لنا الأصالة[٢] فمن أهم ما يميز تراثنا الإسلامى هو مجموعة القيم المنبثقة فيه وخصوصا القيم الأخلاقية المطلقة، لذلك فهو يرى أن خاصية الحضارة الإسلامية هى تمحورها حول الأخلاق، فبناء الحضارة الإسلامية ركيزتها «الأخلاق» [٣]، ويضيف إلى ذلك بقوله:«كانت الأخلاق هى أعمق الأسس التى بنيت عليها حضارة الإسلام، وعلى هذا الضوء نفهم من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «انه بعث ليتمم مكارم الأخلاق»[٤].

بيد أن زكى نجيب محمود وإن كان قد أطلع إطلاعا واسعا على الثقافة الغربية وبدى معجب بمقوماتها إلا أنه أثناء تطوره الفكرى اكتشف ميزة أخرى بحضارة إسلامية من سائر الحضارات، هى أنها أدارت ريحها حول «الأخلاق» فإذا كانت حضارات أخرى قد أرست قواعدها فى المقام الأول على «الفن» أو على العلم، أو غير ذلك من أسس كالزراعة والتجارة والصناعة، فإن الحضارة الإسلامية قد اختارت الأخلاق أساسا لها[٥] لذا يرى أيضا زكى نجيب محمود أن هذه القيم هى ما يمتاز به تراثنا الإسلامى وهى التى إذا ما تمسكنا بها ستنتشلنا من وضعنا الراهن بعد إضافة تغييرات ومفاهيم معاصرة عليها ومن بين هذه القيم التواصل وخصوصا بين

١- أسامة على حسن الموسى، المفارقات المنهجية فى فكر زكى نجيب محمود، المرجع المذكور سابقاً، ص ١٦٠.

٢- زكى نجيب محمود، ثقافتنا فى مواجهة العصر، دار الشروق القاهرة، ط٣، ١٩٨٣، ص ٨٩.

٣- زكى نجيب محمود، عن الحرية أتحدث، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦، ص ٢٣٣.

٤- زكى نجيب محمود، عن الحرية أتحدث، المصدر السابق، ص ٢٣٥.

٥- المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

رجال الفكر ولقد كان ما يلفت النظر فى الحياة الفكرية لآبائنا العرب الأقدمين تواصل قوى وثيق بين رجالها، حتى لتحسبهم فى كل شريحة زمنية أسرة واحدة اجتمعت تحت سقف واحد فهاهنا كتاب يصدر فى موضوع معين فلا يلبث أن يرد عليه ناقد هناك للكتاب، بل كان هؤلاء الرجال بالفعل يتقلون ليلتقى أحدهم بأحدهم لقاء حيًّا، فيتبادلون الرأى، وكأن جميعهم أساتذة يعملون فى جامعة واحدة[1] وعليه نجد زكى نجيب محمود أنه اصطنع منهجا جديدا فى دراسته مخالفا للمنهج الوضعية المنطقية، وهذا المنهج قائم على الموروث، فهو يقول: « ومتى تكون جملة الكلمات سلطان على الناس؟ أجبتك بقول: أنظر إليها كم تحرك بها الناس نحو أن يغيروا ما بأنفسهم ليغيرهم الله ظروف معاشهم، فإذا وجدت الجملة قد وقعت بكلمات على صميم فقل عنها إنه قد كانت – لأمر ما – كهباء يسقط على الأجساد فلا تحسه الأجساد، فالكلمات نتائجها»[2].

وعليه نجد أيضاً من القيم التى ناشدت التراث العربى لم تنحصر فى الأخلاق فحسب، إنّما تجاوزت الواقع المعاش الذى يعطينا القيمة العملية التى من خلالها نواكب روح العصر و نجتاز واقعنا المتخلف من المنظور العملى أو بالأحرى القيمة العملية التى ترفع حسب «زكى نجيب محمود» مبنى الحياة و تعتبر العنصر الحاسم فى التراث، و قد يستند «زكى نجيب محمود» فى هذا الصدد على محكم التنزيل فهو يقول أنّه كلما ذكرت الآية يخاطب الله فيها المؤمنين أضاف إلى ذلك ﴿ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾* فكأنّ الإيمان لا يكون إيماناً كاملاً إلاّ أذا اقترنا بالعمل الصالح وصلاحية العمل إنّما تكون إلى الهدف المنشود إلى النوع الموقف الذى نواجهه، ومعنى هذا أنّ العمل الصالح حسب «زكى نجيب محمود» يكون مرسى الإيمان الكامل، لأنّ صلاحية العمل تقتضى الهدف الذى نسعى للوصول إليه وإلى مقياس الموقف الذى نصادفه.

١- زكى نجيب محمود، ثقافتنا فى مواجهة العصر، المصدر السابق، ص ١٣٣.

٢- زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى،المصدر السابق، ص ١٩٨.

* آية ذكرت فى عدّة سور من بينها: سورة العصر الآية ٣، البينة الآية ٧، التين الآية ٦.

كما يرى «زكى نجيب محمود» أنّ مجموعة القيم من خلالها يمكننا رسم حياة مثلى يكون فيها العمل والأمل بمثابة الخطين المتوازيين الذين يسيران على جنب لأنّها تمدنا بالطابع الفريد الذى يحقق لنا الأصالة[١].

لقد وجد « زكى نجيب محمود» فى التراث العربى ميزة أخرى و هى ميزة العقل حيث رأى بأنّ العربى القديم كان فى نظرته للعالم وما فيه يستند إلى «العقل»، وحتى فقهاء اللغة العربية سعوا إلى إيجاد مبانى تعتمد على العقل فى تفسير أوضاع اللغة وقواعدها حتى ولو يوفقوا فى الوصول إلى النتائج و الأهداف المرجوة وإنّما الأهم من ذلك يكمن فى استعمال العربى للعقل كما أنّ المشكلات القديمة التى كانت تواجه العرب مثل مسألة الكبائر التى كانوا يرتكبونها لإيجاد حل لتفسير معطى هذه الكبائر و إن كانت كفراً فى تمدهم لارتكابها أو يضلون على إيمانهم بالرغم ما اقترفوه وقد احتكموا فى هذا إلى استعمال العقل، وهذا ما نجده حسب «زكى نجيب محمود» فى بعض الفرق الإسلامية التى استندت إلى العقل مثل «المعتزلة»* وعلى رأسها واصل ابن عطاء الذى وقف موقف عقلى اتجاه هذى المسألة ، كما وقف أيضاً موقف وسط فى حكمه على مرتكب الذنب واصفاً إياه بأنّه ليس كافراً كفراً مطلقاً ولا مؤمن إيماناً كلياً، لذلك رأى «زكى نجيب محمود» ضرورة إتباع أسلافنا من مبتغى وتوظيفهم للعقل توظيف يطرأ جميع الجوانب المعيشية والحياتية على العكس من ذلك رأى كذلك «زكى نجيب محمود» أنّ المصرين من العرب مالوا نوعاً ما عن طريق العقل وأحكامه واستندوا إلى الوجدان وميوله[٢] بحيث يتبين لنا أنّ «زكى نجيب محمود» قد أعجب بفكرة محمد إقبال التى أوردها فى كتابه التجديد فى الفكر الإسلامى[٣]، مفادها أنّ الرسول عليه

---

١ – أسامة على حسن الموسى، المفارقات المنهجية، المرجع السابق، ص ١٦١ .

* المعتزلة: فرقة كلامية ظهرت فى القرن الأول للهجرة وبداية القرن الثانى على يد واصل ابن عطاء.

٢ – زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى،المصدر السابق،ص[٣٢٥–٣٢٨]. بالتصرف.

٣– المصدر نفسه، ص ٣٠٩ .

الصلاة والسلام كان لا بد أن يكون خاتم الأنبياء وأن تكون رسالته آخر الرسالات لأنه جاء من أجل العمل على إيجاد الحلول للمشكلات التي يتعرض لها الناس في مختلف المجالات وذلك وفق مقتضى عقلي وعليه فما دام أننا نسير وقف العقل لا نحتاج إلى إيجاد وسيلة أخرى، وقد استند «زكي نجيب محمود» في هذا إلى مقولة الجاحظ عن العقل وهي: «أليس العقل هو وكيل الله عند الإنسان»[1]، وأيضاً «و إنما سمية العقل عقلاً - كما يقول الجاحظ- لأنه يزم اللسان ويحطمه عن أن يمضي فرطاً في سبيل الجهل والخطأ و المضرة كما يعقل البعير»[2].

وإذا ما أردنا أن نوضح هذا نجد بأنّ العقل يعد المرسى الوحيد الذي يوجه أو بالأحرى يعصم اللسان من الزلل[3]. وعلى هذا الأساس إذا حولنا السير في نفس الاتجاه الذي سار فيه أسلافنا لا بد لنا أن ننظر إلى العالم نضرة يحكمها العقل في مختلف المشكلات التي تواجهنا.

- **التوفيق بين التراث والمعاصرة:**

إن انتقال «زكي نجيب محمود» من الفكر الغربي عامة و الوضعية المنطقية خاصة إلى التراث لا يعني هذا بأنه تخلى عن الفكر الغربي كاملاً، و إنما أراد المزاوجة بين هذا الأخير (الفكر الغربي) وبين التراث، حيث تعد هذه المرحلة في فكر «زكي نجيب محمود » هي مرحلة انتقال وتزاوج بين الفكرى العربي والغربي وليست مرحلة إنهاء وتخلي عن الفكر الغربي.

تعد هذه المرحلة من أهم المراحل التي مرّ بها فكر «زكي نجيب محمود» باعتبارها نقلة اكتشاف ومحطة وصول لأنّ مسألة الجمع بين الموروث الثقافي الأصيل

---

١ - المصدر نفسه، ص ١١٠، نقلاً عن رسالة المعاش والمعاد، ج ١ من رسائل الجاحظ، ص ٩١.
٢ - المصدر نفسه، نقلاً عن رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ج ١، من رسائل الجاحظ، ص ١٤١.
٣ - المصدر نفسه، ص ٣١٠.

الذى يعتبر من بين المقومات الأولية التى أعطت الهوية لتاريخ العربى بصفة عامة والشعب العربى بصفة خاصة، من منظور أنّ السير فى هذا المقام يحتم على كل عربى تمجيد ماضيه الذى يجسد مبناه، وبين الوجه الأخر للحياة التى أعطت لنا الشعلة لمسايرة زمننا من الناحية الفكرية والجسدية معا»، نجد بأنّ النقلة الفكرية لزكى نجيب محمود فى أواسط الستينيات لم تكن بنفس الطريقة التى أحدثها سابقاً عندما كان منغمساً فى الثقافة الغربية[١] كما يظهر ذلك من خلال كتاب قصة عقل ومن أجل توضيح ذلك نقول أنّ تطور فكر زكى نجيب محمود نلاحظ تغير فى نضرته إلى الثقافة الغربية، وبالأحرى الفكر الغربى حينما قال: « لم أكن فى تلك الأعوام أفرق بين ما يجوز نقله عن الغرب وثقافته وما لا يجوز، فكل ما عندهم واجب النقل إلينا ... أن نأكل كما يأكلون ونكتب من الشمال إلى اليمين كما يكتبون وأن نرتدى من الثياب ما يرتدون »[٢]، و إذا ما أرنا توسط الحديث عن «زكى نجيب محمود» فى هذا الصدد نجد أنّه اعترف بصريح العبارة أنّ نظرته للتراث كانت سلبية أراد إقصائه إذ يقول فى هذا الصدد: «بدأت بتعصب شديد لإجابة تقول أنه لا أمل لحياة فكرية معاصرة، إلاّ إذا بترنا التراث بتراً و عشنا مع من يعيشنا فى عصرنا علماً وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان و العالم »[٣]، وعلى هذا الأساس يتبين لنا أنّ «زكى نجيب محمود» اعترف بمبالغته بدعوته بالتخلى عن التراث من أجل معايشة العصر من منظور أنّ «زكى نجيب محمود» وازن النظر بين الأصيل المتجذر فينا وبين عصرنة واقعنا بحيث أعطى تشبيه فى هذا الصدد بقوله :«إنه قد تكون لدينا أنوال قديمة لنسيج القماش، فهل تحدث ثورة فى صناعة النسيج ، إذا نحن أبقينا على الأنوال القديمة كما هى ثم زدنا من كمية القماش المنسوج وغيرنا من ألوانه وزخارفه»[٤]، أى « خلق تركيبة عضوية تجمع بين التراث والحضارة العصرية »[٥] .

---

١ – زكى نجيب محمود، قصة عقل، دار الشروق، القاهرة، ط١٩٨٨،، ص ٢٢٢.
٢ – المصدر نفسه، ص ٧٣.
٣ – زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى،المصدر السابق، ص ١٣ .
٤ – زكى نجيب محمود، قصةعقل،المصدر السابق، ص٢٣.
٥ – أسامة حسن الموسى، المفارقات المنهجية فى فكر زكى نجيب محمود، المصدر السابق، ص ١٦١ .

إنّ مسألة أو مشكلة الأصالة والمعاصرة عند زكى نجيب محمود هى الصيغة التى تجمع بين العقل والوجدان وإذا ما أحدثنا ثورة فكرية حسب زكى نجيب محمود لابد أن يتغير المحصول الناتج وأن تتغير الأوضاع والقوانين، بما يتناسب مع الأساس الجديد، فعندما كان يميل زكى نجيب محمود إلى التيار الغربى بحذافيره ادخل تصورا جديدا عدل فيه نظرته السابقة، ولا يرى فى تغيير موقفه هذا عيبا إذ يقول : «ليس فى هذا التحول ما يعيب أحداً إلا من تشبث فى رأييه حتى لو ظهر بطلانه »[١]، والعقل[*] والوجدان[*] من منظور أن الجانب الوجدانى حسب زكى نجيب محمود من أهم الجوانب الموجودة فى الفطرة الإنسانية وحياته، فلا يجوز بأى حال من الأحوال إنكاره[٢]، فإذا قسمنا هذه الفكرة (العقل والوجدان) على معادلة التراث عند تحليله نجده بمثابة النسيج المتآلف فى الثقافة العربية التى تبدو ذات قابلية وسمة بارزة والتى يمكن لها أن تكون مصدرا متينا لإقامة ثقافة عربية جديدة تحافظ على أصالتها وتواكب عصرها فى آن واحد[٣]، كما يتضح ذلك جليا فى كتاب «قصة عقل» الذى ظهر بعد سفره إلى الكويت، لذلك يمكن اعتبار حصول التوفيق عند زكى نجيب محمود فى سبعينيات القرن الماضى.

فإذا تفحصنا دفتر التراث نجد بأنّه اجتمع طرفان العقل و الوجدان معاً بحيث اجتمع تأمل المتصوف و تحليل العالم ، و فى هذا الصدد يقول زكى نجيب محمود :« إذا جاز لنا أن نضع عنوانا وصفيا يلخص اتجاه الثقافة العربية فى كل عصورها المنتجة قلنا أنها عقل فى خدمة الوجدان»[٣]، وما يعنيه «زكى نجيب محمود» هو الذى

---

١ – زكى نجيب محمود، قيم من التراث، دار الشروق،القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٦٧.

* العقل بوجه عام هو ما يميز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ. (إبراهيم مدكور، الهيئة العامة للشئون والمطابع الأميرية، ١٩٨٣، ص ١٢٠).

* الوجدان :هو النفس وقواها الباطنة من جهة ما هى وسيلة لإدراك الحياة الداخلية .(المعجم السابق نفسه ، ص ٥٥٧)

٢– زكى نجيب محمود ، قصة عقل ،المصدر السابق، ص١٧٥.

٣– المصدر نفسه ، ص ١٢٣.

يطلب أن تقام البراهين على كل فكرة يتقدم بها صاحبها إلى الناس، وأما الوجدان فيقبل ما يقبله ويرفض ما يرفضه بلا برهان [١]، وإذا استرسلنا الحديث عن العقل والوجدان حسب ما يراه زكى نجيب محمود بأنه أراد أن يجعل من نفس العربى مزيج بينهما (العقل والوجدان) من منظور أن العربى صاحب علم وصاحب دين فى أن واحد لأن العلم هو «عقل» ودين هو «وجدان» ، وهذا أمر بين بذاته لا يحتاج إلى برهان لأن اللقاء بين هذين الجانبين لا يشترط أن يتم فى فرد واحد بل يجب أن يتحقق لدى عامة الناس منهم من يتفرد بالتفكير العقلى وغيرهم أصحاب الحالات الوجدانية، وعلى هذا الأساس إذا ما ازدوجت الرؤية بين العقل والوجدان فى ثقافة واحدة يعنى هذا ازدواج المستويان متعاقبين الذين لا يكون بينهما صدام ولا تنافر، فقد يأتى الإدراك الوجدانى المباشر ثم يأتى بعد ذلك إعمال منطق العقل الذى بمقتضاه جملة من الأهداف للإدراك الوجدان، وهذا ما يتضح فى الثقافة العربية إذ يسلم المؤمن أولاً ثم لا عليه بعد ذلك أن يتناول بالتحليل العقلى ما أمن به [٢].

بين زكى نجيب محمود فى كتابه الشرق الفنان أن هناك طرفان طرف يتمثل فى الشرق الأقصى وطرف أخر يتمثل فى الغرب، بالنسبة إلى الأول يقوم على فكرة مؤداها أن ينظر الإنسان إلى الوجود نظرة حدسية (المعرفة المباشرة)، وهذه النظرة هى نظرة الفنان الخالص أما الثانى (الغرب) هو أن ينظر الإنسان نظرة عقلية تحلل الظواهر وتقارن وتستدل وهذه نظرة العلم الخالص وقد وازن زكى نجيب محمود بين الطرفين واصفاً بذلك وسط يجمع بينهما ويتمثل هذا الوسط فى الشرق الأوسط الذى يبن تاريخ ثقافته على المزاوجة بين إيمان البصيرة ومشاهدة البصر، أى بين الدين والعلم[٣]، يوضح زكى نجيب محمود فى هذا الصدد أن علوم الطبيعة

---

١ – زكى نجيب محمود، الشرق الفنان، دار القلم، القاهرة، بدون سنة،ص ١٨٤.

٢ – زكى نجيب محمود، قصة عقل، المصدر السابق، ص ١٨٥، ١٨٦.

٣- زكى نجيب محمود، الشرق الفنان،المصدر السابق، ص٨٩.

وإبداعات الفنون تسيران معا فى خطين متوازيين، فبالنظرة الأولى أى علوم الطبيعية «عقل يعمل» أما فى إبداعات الفنون فالكل يجب أن يكون موقفنا إزاء هذا هو أن يتواصل مع العالم الحاضر فى علومه وننفرد بما هو وجدان قومى خاص، لأن داخل هذا الوجدانى الخاص ميزات أساسية متمثلة فى عقيدتنا الدينية وبعض تقاليدنا الأسرية[1]، فقد كانت نظرة «زكى نجيب محمود» للتراث العربى الإسلامى نظرة شمولية بحيث جمع بين الدين والفن والتقاليد السابقة، كما تأثر بالخطاب الراشدى عندما أوضح مؤكدا أنه استلهم تجربة ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨) التوفيقية فى جل كتاباته التى حاول فيها فصل النزاع بين النقل والعقل وتحديد الثوابت الثقافة العربية ومتغيراتها[2].

كما يرى زكى نجيب محمود أنّ هناك عدّة عناصر يجب أن نربطها مع بعضها البعض لتمكن من حضارة عربية معصرنة والتى تقوم على ترجمة كل الإنتاج الإنسانى إلى اللغة العربية مع الاحتفاظ بقواعد السلوك لأن ما يميز العصر هو العلم وجل تقنياته بحيث إن أنزلنا المضمون العلمى بمميزاته فى ميدان من عندنا حصلنا على النتيجة التى نريد ،أما الميدان الأول فهو اللغة الممزوجة بالفكر العصرى كما هو، لكى نحصل على نتاج عربى القسمات والملامح، أما فيما يخص الميدان الثانى فهو قواعد السلوك من حيث التشريع أى ما يتماشى مع القواعد ومقتضيات علوم العصر مع تشعبها[3]، إذ بعد رؤية زكى نجيب محمود بضرورة الأخذ بالمنهج الغربى العلمى والتجريبى، تغيرت نظرته لهذا فقد راءاه أنه لا يكفى لأنه نتيجة التحقق منه غير يقينية قد يتحقق لنا يوما ما فيكون ضمن الذى دفعته فى مقابل ذلك هو أنفسنا ، كما أكد زكى نجيب محمود على حتمية المحافظة على الهوية العربية بصفة عامة

١- زكى نجيب محمود، قصة عقل،المصدر السابق، ص٨٩.

٢- عصمة نصار، الخطاب الفلسفى عند ابن رشد وأثره فى كتابات محمد عبده وزكى نجيب محمود، دار العلم بالغيوم ٢٠٠٢، ص ٣٣.

٣- زكى نجيب محمود، هذا العصر وثقافته، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٩٨٠، ص ٨.

وهويته المصرية بصفة خاصة[١]، لذلك رأى زكى نجيب محمود بوجوب تبنى الفرد نظريتين (علمية وصوفية) على أساسهما يقسم حياته إلى قسمين أحدهما ينصرف إلى دنياه والأخر يلتمس به الآخرة[٢]، فهو بهذا يوازن موازنة فى غاية الدقة والبراعة بين وجهى الحياة، فالواقع المحسوس مجال ولما وراءه مجال آخر بحيث لا يتجاوز أحدهما الآخر بل يسيران فى خطوط متوازية، لذا يجب مراعاة التوازن بين النظرة للواقع حين ينبغى أن يحصر رؤيته فيه ثم النظر إلى ما وراؤه باعتبار أنه مهما عايشنا الواقع بما فيه من قيم علمية رفيعة إلا أنها تبقى جزئية فانية وعابرة على عكس المطلق الأزلى الأخروى الذى لا يفنى[٣].

يتضح من خلال هذا أن زكى نجيب محمود أصبح يبدى أهميته لجانب الأصالة ويحافظ على الهوية العربية الإسلامية بحيث حاول إيجاد ثنائية يجمع فيها بين الثقافة العربية والثقافة الغربية ومن شأن هذه الثنائية أن تفتح كما يقول زكى نجيب محمود: « تفتح أمامنا أفاق مغلقة فهى ثنائية تضع الإنسان على قدميه فوق الأرض، وترفع رأسه إلى السماء أى أنها تتيح له الفرصة أن يعيش لهما معا فعلى الأرض يسعى علما وعملا بكل ما يتطلبه العلم من دقة وما يتطلبه العمل من صبر ودأب، وفى السماء يهتدى بالمثل التى ترسم أمامه لتكون له على الطريق أهداف وغايات »[٤].

إن العلم والقيم كلاهما فى أوروبا وأمريكا بنيت من الأرض وأما الثنائية المقترحة فتجعل العلم نباتا ينبثق من الأرض وظواهرها، وتجعل القيم غيثا ينزل من السماء ووحيا مطلق لا تغير مع تغير الزمن فهى ثابتة من ناحية الأسس، والعلم نسبى يتغير مع التغير والتطور[٥]، وهذا أراد زكى نجيب محمود إيجاد سبيل من أجل دمج التراث العربى القديم فى حياتنا المعاصرة ، حتى تكون لنا حياة عربية ومعاصرة

---

١ – زكى نجيب محمود، قصة عقل،المصدر السابق، ص ٢٢٥.
٢ – المصدر نفسه ، ص٢٣٠.
٣– المصدر نفسه، ص ٢٣٠، ٢٣١.
٤ – زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى، المصدر السابق، ص ٢٨٤.
٥ – زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى، المصدر السابق، ص ٢٨٤.

فى آن واحد وذلك من خلال البحث عن طرائق السلوك التى يمكن نقلها عن الأسلاف العرب بحيث لا تتعارض مع طرائق السلوك التى استلزمها العلم المعاصر والمشكلات المعاصرة[١]، ويرى زكى نجيب محمود أنه لا سبيل لأن تكون عربيا ومعاصرا فى آن معاً إلا إذا أخذنا من التراث صورته دون مضمونه ، والأخذ من الفكر المعاصر مضمونه دون صورته، ثم ندمج الصورة التراثية مع المضمون المعاصر فنشكل بذلك عربيا ومعاصرا[٢].

إذا ما نظرنا إلى تاريخ الفكر فى الشرق نجد بأنه هو التاريخ الإدراك الصوفى حسب زكى نجيب محمود باعتبار أن الشرق نزعة روحانية تصوفية فنية على غرار الغرب الذين ينتهجون النزعة العقلية المنطقية العلمية، وإذا توسطنا الحديث عن هاتين النزعتين نجد أنهما متجاورتين فى رحم الشرق الأوسط بحيث لا يمكن ترجيح القول بأن كلا من الشرق والغرب شيء واحد كما لا يمكن أن نسلم بالقول على أنهما نقيضان لا يلتقيان لأنهما اجتمعا فى الشرق الأوسط ، وكذلك هما مجتمعان فى كرة أرضية واحدة وعليه فسلامة القول أن يقال أنهما نزعتان متكاملتان فى كل فرد وفى كل أمة بنسب تختلف من فرد لأخر ومن أمة إلى أخرى بحيث إذا ما أصرفت أمة فى تأرجحها نحو العلم مثلا كان الأرجح أن يحثها من يذكرها بأنه لا بد للإنسان من دفء العاطفة[٣].

إذاً الجمع بين التراث والمعاصرة عند زكى نجيب محمود لم ينشأ مرة واحدة فى المرحلة الثالثة من تطوره الفكرى بل إن ملامح التوفيق كانت موجودة فى المرحلتين الأولى والثانية ولكنها لم تتبلور بشكل قوى إلا فى أواخر حياته .

وفى الأخير يمكننا القول أن زكى نجيب محمود لم يسلط الضوء فقط على الجانب الروحى للثقافة العربية فقط بل دعا كذلك إلى الاعتزاز بالأسلاف، وأن

١- المصدر نفسه ، ص ٢٠.

٢- زكى نجيب محمود، من خزانة أوراقى، دار الهداية للطباعة والنشر، بدون بلد، ط ١، ١٩٩٦، ص ١٤٨.

٣- زكى نجيب محمود، الشرق الفنان،المصدر السابق، ص ١١٩.

الأمر لا يقتصر على فقهاء الدين، بل يجب أن نضيف إليهم الأسماء اللامعة لعلماء الرياضيات والطب والكيمياء والفلك والمؤرخين والرحالة والشعراء والفلاسفة، فهؤلاء جميعا قد وجهوا جهودهم نحو الكون يقرءون ظواهره ويستخرجون قوانينها، حتى أصابنا الجمود منذ القرن الخامس عشر الميلادى ودعا إلى جعل إسلامنا على النحو الذى كان عليه إسلام الأسبقين فيما يختص بالحياة العلمية، فقد كان عالم الرياضيات أو الكيمياء أو الطب مسلما وعالما بإضافة واو العطف بين الصفتين، بمعنى أن اهتمامه بالفرع الذى يهتم به من فروع العلم الرياضى والطبيعى كان جزأ من إسلامه، أو بعبارة أخرى كانت العبادة عنده ذات وجهين يعبد الله بالأركان الخمسة ويبحث فى خلق السماوات والأرض وما بينهما كما أمره القرآن الكريم، وبهذه النظرة يكون مخرج المسلمين من مأساتهم الحالية.

الملخـــص:

مرت حياة زكى نجيب محمود الفكرية بثلاثة أطوار، انشغل فى الأولى التى امتدت حتى سفره إلى أوربا بنقد الحياة الاجتماعية فى مصر وتقديم نماذج من الفلسفة القديمة والحديثة والآداب التى تعبر عن الجانب التنويرى، ويتمثل هذا النشاط فى الكتب الثلاثة التى اشترك فى تأليفها مع أحمد أمين .

وبدأت المرحلة الثانية بعد رجوعه من أوربا وامتدت حتى الستينيات من القرن العشرين، وفى هذه الفترة دعا زكى نجيب إلى تغيير سلم القيم إلى النمط الأوربى، والأخذ بحضارة الغرب وتمثلها بكل ما فيها باعتبارها حضارة العصر، ولاشتمالها على جوانب إيجابية فى مجال العلوم التجريبية والرياضيات، ولها تقاليد فى تقدير العلم وفى الجدية فى العمل واحترام إنسانية الإنسان، وهى قيم مفتقدة فى العالم العربى.

أما المرحلة الثالثة فقد شهدت عودته إلى التراث العربى قارئا ومنقبا عن الأفكار الجديدة فيه، وباحثا عن سمات الهوية العربية التى تجمع بين الشرق والغرب وبين الحدس والعقل وبين الروح والمادة وبين القيم والعلم.

وفى هذه المرحلة دعا إلى فلسفة جديدة برؤية عربية تبدأ من الجذور ولا تكتفى بها، ونادى بتجديد الفكر العربى، والاستفادة من تراثه، وقال: إن ترك التراث كله هو انتحار حضارى؛ لأن التراث به لغتنا وآدابنا وقيمنا وجهود علمائنا وأدبائنا وفلاسفتنا وكان يتمنى ألا نعيش عالة على غيرنا، وإنما نشارك فى هذا العالم بالأخذ والهضم والتمثيل ثم إعادة إفراز ما أخذناه مثلما فعل المسلمون حينما أخذوا العلم والفلسفة الإغريقية وهضموها ثم أفرزوهما وزادوا عليهما زيادات مهمة.

وكان يرى أن السر وراء تخلف العالم الإسلامى المعاصر هو أنهم يكتفون بحفظ القرآن الكريم وترديده دون العمل بما يشير إليه من وجوب العلم بالكون وظواهره، فإذا تنبه المسلم بأن البحث العلمى فى ظاهر الكون من ظاهرة الضوء إلى الصوت إلى الكهرباء والمغناطيسية والذرة، كل ذلك يشجع عليه ديننا، وإذا أيقن أن البحث فرض دينى، لكان المسلم الآن هو صاحب العلم وجبروته، ولكان الآن من راكبى الصاروخ وغزاة الفضاء، وكان هو الآن صاحب المصانع التى تأخذ من البلاد المتخلفة موادها الخام بأقل ثمن، ثم تردها إليه مصنوعات بأغلى سعر، فيكون الثراء من نصيبه والفقر من نصيب الآخرين، لكن المسلم لم يعقل ذلك كله وظن أن العبادة وحدها هى الأمر الإلهى.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

قائمة المصادر:

١- زكي نجيب محمود، الشرق الفنان، دار القلم، القاهرة، بدون سنة.

٢- زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٩٨١.

٣- زكي نجيب محمود، ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٨٣.

٤- زكي نجيب محمود، عن الحرية أتحدث، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦.

٥- زكي نجيب محمود، قصة عقل، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٨.

٦- زكي نجيب محمود، قيم من التراث، دار الشروق، القاهرة، بدون طبعة، ٢٠٠٠.

٧- زكي نجيب محمود، من خزانة أوراقي، دار الهداية للطباعة والنشر، بدون بلد، ط١، ١٩٩٦.

قائمة المراجع:

١- أسامة على الحسن الموسى، المفارقات المنهجية في فكر زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت، ط١، ١٩٩٧.

٢- عصمة أنصار، الخطاب الفلسفي عند ابن رشد وأثاره في كتابات محمد عبده وزكي نجيب محمود، دار العلم بالفيوم، ٢٠٠٢.